من صميم السيرة

الإسراء

للأستاذ أمجد الطرابلسي

رقدتْ ملء عينها البيداء واحتوتها فى سرِّها الظلماء
وأوى موكبُ الطيورِ إلى النخـ ـلِ وحنَّتْ لرُغْبِها الورقاء
والمها أطبقتْ على الصَّفوِ عينيـ ـها، ومالت إلى الكِناسِ الظِّباء
سكنَ الليلُ، لا هتافٌ ولا عز فٌ ولا آهةٌ ولا ضوضاء
ليس إلاّ النجومُ تهمسُ فرحى فى الرِّحابِ العُلى فتُصغي الجوزاء
وسَجَتْ مكةٌ، فلا اللهوُ لهوٌ فى حِماها، ولا الغناء غناء
أطفأتْ فى الخيام كلَّ سراج رَقصتْ فوقَ ثغرِهِ الأضواء
وانقضى كلُّ سامرٍ أثملته بالفنونِ الرُّواةُ والشُّعراء
وتهادى النسيمُ بين الروابى كلما هبَّ هدَّه الإعياء
ملء أعطافه أريجُ الخزامى وبقايا الكؤوس، والأندماء
نامتِ البيدا! هل رأيتَ سريراً رقدتْ فوقَ صدرِهِ عَذراء؟
الطُّيوفُ الفرحى تطوف حَواليـ ـهِ كما طافَ بالقلوبِ الهناء
والمنى الضاحكاتُ تلثمُ خدَّيـ ـها فيفترُّ ثغرُها الوضَّاء
يا جمالَ البيداء! ماذا ينالُ الـ ـوصفُ منهُ، وما يُصيبُ الثناء؟!
كلُّها السِّحْرُ والرَّحيقُ المُصَفَّى كلُّها الشِّعرُ والهوى والبهاء
كلُّها المجدُ والبُطولةُ والسُّؤ دُدُ والعزُّ والنَّدى والإباء!

* * *

إيهِ يا منبعَ الصَّناديدِ يا بيـ ـدُ إذا رَجَّ جانبيكِ نداء!
يا هبَّ الفرسانِ إن صَرَّخ المجـ ـدُ يناديهمُ وهُزَّ اللِّواء!
نامَ يا بيدُ فى سكونِكِ ندبٌ حَفِظتهُ وهدْهَدَتْهُ السماء
سَهِرتْ حولَه العنايةُ ترعا هُ وحامتْ من فوقِهِ الآلاء
من ذُؤاباتِ هاشمٍ كلهُ طُهـ ـرٌ ونبلٌ ورحمةٌ ووفاء
أروعٌ أينَ من عزيمتهِ السَّيـ ـفُ ومن جودِ كفِّه الأنواء!
عربيٌّ تهلَّلَ الكونُ لما كرَّمتهُ النبوَّةُ الغرَّاء
شعَّ منهُ الهدى فهاجتْ وماجتْ حَنَقاً — جاهليَّةٌ رَعْناء
دينُها البغيُ والتناحرُ والثا راتُ والبطشُ والأذى والدِّماء
فاحفظيه يا بيدُ فهو رَجاءُ الـ ـكونِ وسطَ الظلام وهو الضِّياء
ما يدومُ العمى إذا أسفرَ الحقّ ولا النور والظلام سواء!!

* * *

إيهِ يا نائماً تداعبُ جَفْنيـ ـهِ الخيالاتُ والرُّؤى الشَّمّاء!
يا نَبيًّا فى صدرِهِ خفقَ الكو نُ جميعاً، جراحُهُ والدَّواء!!
يا رسولاً ترنو لطلعته الأمْـ ـلاءُ حَيْرى قد عَمَّها الإدْجاءُ!
أيُّها النائمُ انتبهْ! قد أتاكَ الـ ـرُّوحُ يَحدوهُ من عُلاهُ القَضاءُ
والبُراقُ السَّعيدُ حَمْحَمَ فى البا بِ اشتياقاً فاهتزَّتِ الصَّحراءُ
طِرْ عليهِ تَمْضِ القفارُ سِراعاً تَحتَ وَثباتِهِ ويُطْوَى الفَضاءُ
طِرْ عليهِ إنَّ العَوالمَ تَشوى مُذْ أتتْها عن سعيكَ الأنباءُ
والسمواتُ تستعدُّ لمسرا كَ وقد زغردتْ بها البُشَراء
تتغنَّى فيها الملائكُ فرحى وتهادى البشائرَ الأنبياءُ
رفرفا فى سماء مكةَ. فالريـ ـحُ ذَلولٌ تحتَ البراقِ رُخاءُ
وامضيا تَمَّحِ الفلا والمسافا تُ كأنَّ ابتداءهنَّ انتهاءُ
فإذا شِمتما على البُعدِ سَينا ءَ ولاحت كُثبانُها السَّمراءُ
فاهبطا، طَرْفَةَ العُيونِ، إليها يا لَرَبّى لِما رأتْ سيناء!!
يومَ ناجى الكليمُ فى جانبيها ربَّهُ، ملءُ أصغريه الرَّجاءُ
فهوى مُرْعشاً وقد هاله النو رُ وأعشى عيونه اللألاءُ
ثمَّ سيرا حتى إذا (بَيْتُ لَحْمٍ) دَوَّمَتْ من بُروجِها الأصْداءُ
فاهبطا تُرْبَها الذَّكيَّ فمنـ ـه
« أسفرَ الرِّفقُ والهدى والحياء[1] »
وأتيا المسجد الذى بارك اللـ ـهُ حَواليهِ منذ كان البناء

---

(١) : قال شوقى:
ولد الرفق يوم مولد عيسى والمروءات والهدى والحياء

فاسجدا فيه للذى غمرَ الكو ... نَ نَدَاهُ وعطفهُ والرضاء
صلِّيا يَبْسِمِ المُصَلِّى ابتهاجاً ... لكما فى الدُّجى ويَشْدُ الفِناء
واعرجا صاعدَيْن سبعاً طباقاً ... لا حِجابٌ ، لادُجْيَة ، لا عماء
أَلَقٌ باهرٌ ، وبحرٌ من النو ... رِ خِضَمٌّ ، وَرَوْعَةٌ ، وصَفاء
ليس إلا ملائكٌ تحمل البشـ ... ـرى ورسْلٌ أَحِبَّةٌ أصفياء
اصعدا فى الجمال حتَّى تجلّى ... لكما سِدْرَةُ العُلى القصماءُ
وانظرا من عَلٍ إلى هذه الأجـ ... ـرامِ طُرًّا ، يَجِلُّ عنها الهباءُ
نظـرةً تُنْظِمُ العوالمُ والآ ... بادُ فيها وتلتقى الأملاء
اسموا ، اسموا فما أعظم الأنـ ... ـفُسَ تَفْنى من دونها العلياء !
ما أجلَّ الأرواحَ تعلو وتعلو ... ثم تعلو ، وإن تناهى العَلاء !
ما أحبَّ الفَناءَ فى النُّور إمّا ... كُرِهَ اللَّبثُ فى الثرى والفَناء !

* * *

إيه مسرى النبيِّ ! قد تُنكر الأنـ ... ـوارَ والفجرَ مقلةٌ عمياءُ
ما على جاحديك لومٌ إذا ضَلّـ ... ـوا ، هل الناسُ كلُّهم أنبياء ؟!

* * *

معرجَ المصطفى ! إليكَ التَّحايا ... شَمْشَمتها دموعُنا والدّماء
بوركتْ أرضُكِ النَّديَّةُ يا قُدْ ... سُ ووشَّتْ رياضَكِ النَّعماء !
أنتِ أمُّ الدُّنى ، ومهدُ النُّبُوَّا ... تِ ومنكِ استفاءتِ الآناء
فيكِ موسى ألقى عصاهُ ارتياحاً ... بعد أن طوّحتْ به الأرزاء
والمسيحُ العظيمُ فيكِ تجلى ... يملأُ الأرضَ من هُداه الثَّناء
علَّمَ الكونَ رحمةَ العبدِ للعبـ ... ـدِ ، فلا قسوةٌ ولا إيذاءُ
وغذاه الحبَّ الطَّهورَ فلا بغـ ... ـضٌ ، ولا نَفْرَةٌ ، ولا أعداء
يا حماةَ المسيحِ فى القدسِ ! ما فى
دينِهِ أن يعذَّبَ الضُّعفاء !
ليس فيه طردُ الهزارِ من الأيـ ... ـكِ لتَحْتَلَّ وَكْرَهُ رقطاء !
يا جيوش الصليب فى القدسِ ! ما فى
شرعِهِ أن تُقتَّلَ الأبرياء !
ليس فى شرعِهِ هوانُ المواثيـ ... ـقِ ، إذا ما توانَقَ الشُّرَفاء !
ليس فيه أن يبذلَ العَرَبُ الأنـ ... ـفُسَ كى تسترقَّها «الحلفاء» !
يا لدمعِ المسيحِ ما كان أصفا ... ه ! ولكنَّ روحَكم كدراء !
سائلوا مهدَهُ المُطَهَّرَ هل صا ... نته إلا الغُروبةُ العَرْباء ؟ !
سائلوه يا ناسُ عن عُمَرَ الفا ... روقِ : «ما كانَ عدلَه والوفاء ؟»
سائلوه عن ابنِ أَيُّوبَ لما ... عصفتْ جُنَّةٌ بكم هَوجاء
يومَ جاءتْ جُيوشُكم مثلما انحطَّـ ... ـتْ على النَّهلِ النُّسُور الظَّماء
تُغرِقُ المهدَ مثلما تُغرقُ المسـ ... ـجدَ منها الدِّماء والأشلاء
يوم ضاقت عنها الأباطح فى البـ ... ـرِّ وناءتْ بحملِها الدَّأماء
يُلهبُ الحقدُ والعِداء ما قيـ ... ـها ، وتَنْزو فى صَدْرِها الأَدْوَاء
وابنُ أيُّوبَ يُطفئُ النَّارَ بالحِلْـ ... ـمِ وتجري بنصرِهِ الأنباء
ويفكُّ المُلوكَ صَفْحًا وَمَنًّا ... بعدَ أَسْرٍ يعزُّ فيه الفداء
أنتمُ تعرفونَ عدلَ صلاحِ الدِّيـ ... ـنِ وسْطَ العجاجِ يا طُلَقاء ؟
لم يهجكم للتَّاردينِ ، ولكنْ ... جَشَعُ الذِّئبِ أَثملَتْهُ الدِّماء
أى دينٍ يُحلُّ ذبحَ اليتامى ... أىُّ شرعٍ تُبادُ فيه النِّساء
الأحاديثُ دينُهم مثلكم سَمْـ ... ـحٌ كريمٌ ، لكنَّهمْ ضُعفاء
وجلودُ الغُزاةِ بيضٌ لِطافٌ ... أين منهنَّ جِلْدَةٌ سَوداء ؟ !
إنما العُرْبُ نعمةُ اللهِ فى الأرْ ... ضِ وهمْ فى ظَلامِها الأضْواء
لَهُمُ العزُّ والنُّبُوَّةُ فيهـا ... ولَهُمْ دونَ أهلِها الكبرياء
حملوا مشعلَ الحضارةِ والكو ... نُ ظلامٌ وحيرة وعَماء
هم شموسُ الورى وصَفْوَةُ خلقِ اللّـ ... ـهِ والمُخلَصونَ والحُنَفَاء
كلُّ مجدٍ لمجدِهم يخفضُ الرَّأْ ... سَ خشوعاً ولو نَمته السَّماء !!

* * *

دمتِ قُدْسَ العُلى ودام لكِ العِزُّ
وذلَّتْ فى غابكِ الدُّخَلاء
دمتِ فوقَ السُّها ودامَ لكِ العُرْ ... بُ فداء ، وطابَ هذا الفداء !

(دمشق)

أمجد الطرابلسى